

المديح النبوي في العصر العثماني: مظاهره وخصائصه

زينب بيرو جكلي*

مقدمة

كان المديح النبوي ولا يزال تعبيراً عن حب الشعراء لخير البشرية قاطبة، وقد أراد أصحابه التعبد بالكلمة الطيبة، ودعاهم إلى ذلك أسباب متعددة يتعلق بعضها بالمناسبات الدينية، كرأس السنة الهجرية، وذكرى المولد النبوي الشريف، وزيارة البيت الحرام وقبر المصطفى ﷺ، ويتعلق بعضها الآخر بالظروف المحيطة بالشاعر كالحروب والكوارث الطبيعية، فضلاً عن انتشار التصوف الذي كان له أثر بارز في الشعر الديني عامة وفي المدائح النبوية خاصة. وهناك دواعٍ أخرى ذاتية كالتوبة، وأدبية كـرغبة الشعراء في تقليد أو معارضة مدائح نبوية ذاع صيتها.

امتاز المديح النبوي في العصر العثماني بمظاهر تتعلق بالمضمون، كعرض صفات الرسول ﷺ، فضلاً عن وجود تطرف فيه غير حميد في كثير من الأحيان. كما امتاز بخصائص فنية تتعلق ببنية القصيدة النبوية، وموسيقاها التقليدية والمستحدثة، كوجود مزدوجات، ورباعيات ومخمسات وموشحات نبوية. وهناك سمات تتعلق بالأسلوب

* أستاذة الأدب المساعدة بكلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

أو بالتشكيل اللغوي للمدحة النبوية كاحتوائها على البديع، وظهور معارضات وتشطير ومساجلات نبوية، إلى غيرها من الخصائص التي تتعلق بنبويات العهد العثماني مما سيكشف عنه هذا البحث.

المديح النبوي في العهد العثماني: مظاهره وخصائصه

المدحة النبوية هي قصيدة تنم عن حب الشعراء لرسول الله ﷺ، سواء أكانت في عصر النبوة أم في العصور التي لحقته. ومن المعلوم أن ذكر شمائل المتوفى يعد رثاء، إلا أنه في حق الرسول ﷺ يعدُّ مديحاً وتقريضاً، لأن الغاية منه ليست إظهار التفجع والتحسر، وإنما الثناء على الرسول ﷺ والإشادة بخلاله الكريمة. ومنذ أوائل عصر الدول المتتابعة¹ انقسمت المدائح النبوية إلى قصائد ملهمة يعبر فيها الشاعر عن حبه للمصطفى ﷺ بأسلوب مطبوع لا مصنوع، وأخرى تعد من النظم لاحتفائها بالبديع ولذلك سميت بالبديعيات.

¹ هناك خلاف حول مفهوم عصر الدول المتتابعة: فالدكتور شوقي ضيف يرى أنه يبدأ بـ (334هـ) أي ببداية سلطنة البويهيين وسيطرتهم على زمام الأمور في بغداد، ولكني أرى في ذلك جوراً على العصر العباسي، ولا سيما أن كثيراً من مشاهيره عاشوا بعد هذا الزمن، كالعري والمني، وأبي فراس الحمداني. أما د. نعيم الحمصي فقد حدده في كتابه "نحو فهم جديد ومنصف لأدب الدول المتتابعة". مجيء الصليبيين إلى الأراضي العربية، وأرى أن هذه بداية مبكرة له أيضاً، ولا سيما أن صلاح الدين الأيوبي كان يعلن ولاءه الفعلي للخليفة العباسي، وكان الخليفة لا يزال ذا مركز مرموق. أما د. عمر موسى باشا فقد حدده بموت نجم الدين صالح الأيوبي 948هـ إذ تسلم الحكم الفعلي من بعده شجرة الدر. وحدده كثيرون بسقوط بغداد على أيدي المغول. أما أنا فأرى أن يستهل بمطلع القرن السابع الهجري حيث توفي صلاح الدين الأيوبي، وتسلم الحكم من بعده أولاده، فبدأ التفكك الفعلي للدولة إلى دويلات مجزأة يحكمها غير العرب. أما نهاية العصر فأرى أنها في 1335هـ/1916م، أي ينتهي العصر بالثورة العربية الكبرى التي أتمت الوجود العثماني على الأراضي العربية، وكان العثمانيون قد دخلوها في 922هـ/1516م، ولم ينته مجيء نابليون بونابرت كما يقول المستشرقون ومن لفّ لفهم، لأن هذا كان قد احتل مصر فحسب دون سائر الأراضي العربية، ولمدة سنتين فحسب، ثم خرج منها على أيدي العثمانيين. وهذه الرقعة الصغيرة والمدة الوجيزة لا يمكن أن تؤثر في أدب عصر طويل، كما أن حركة الإحياء التي قامت على يد محمود سامي البارودي كانت في العهد العثماني، لأن هذا الشاعر عاش ومات في عهدهم. وقد أفضت في هذا الأمر في كتي.

وكثر هذه المدائح في العهد العثماني كثرة ملحوظة، ودعا إليها أسباب عديدة منها حب الرسول ﷺ، المناسبات الدينية، ومجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم في أرض الحرم النبوي، وقد تدعو إليها نكبة حلت بالشاعر، أو توبة مما جنت يده. فالشاعر محمد بن إبراهيم العمادي¹ يهيم وجدًا بالمصطفى ﷺ فيعبر عن هذا الحب الشديد بقوله:

يا رسولَ الإلهِ يا أكرمَ الخَلِّ قِ يا رحمةً لكلِّ العبادِ
جُدْ لعبدٍ قد ضيَّعَ العمرَ في الخَوْ ف معاً والرجاءِ والتردادِ
بالغِ الوجِدِ، مُستَهامِ عميدِ فيك مضمئِ الفؤادِ، واهي العمادِ²

وقد تدعو المناسبات الدينية إلى المديح النبوي كعيد رأس السنة الهجرية، وزيارة قبر الرسول ﷺ، فالشاعر محمد بن كمال الحسيني³ حينما زار المدينة المنورة في موسم الحج راح يعبر عن إعجابه وحبه لرسول الله ﷺ، ويدعو للمدينة المنورة بالسقيا لأنها تضم جسده الحبيب وذلك بمثل قوله:

حياكِ يا طيبةَ الغراءِ مبتكراً من الحياءِ جزيلُ النفعِ منسكبُ
فلي بأفقيكِ بدرٌ كاملٌ أبداً في حبه مهجتي والروحِ أحتسبُ⁴

¹ محمد بن إبراهيم العمادي (1075-1135) شاعر ومدرس من دمشق، شعره كثير، ينظر له في: الحافظ، محمد مطيع، ونزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري (بيروت: دار الفكر المعاصر، ودمشق: دار الفكر، 2000) ج1، ص464، وسيرد باسم علماء دمشق، القرن 12 هـ.

² المرجع نفسه ج1، ص475، وينظر للمثله في المرجع نفسه، ج3، ص68.

³ محمد بن كمال الدين حمزة الحسيني (1024-1085) شاعر من دمشق، كان نقيب الأشراف، ينظر له في: الحافظ، محمد مطيع، وأباطة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، 2000) ج2، ص423 وسيرد باسم علماء دمشق ق 11 هـ.

⁴ المرجع نفسه ج2، ص423.

ومجاورة قبر الرسول ﷺ تدعو إلى التعلق به أيضاً، فهذا يجيئ الإحسائي¹ ترك بلاده وجاور المصطفى ﷺ، وكان هذا أمراً معهوداً في المجتمع الإسلامي، فانطلق لسانه في التعبير عن حبه له، وإعجابه به، وشغوره بالأمن والطمأنينة إلى جواره، كيف لا وهو الجواد الكريم، الذي يعين من استعان به، يقول في ذلك:

وجنحتُ مشتاقاً لطيبةَ قاصداً غوثَ الورى، بجرَ الحقائقِ أحمداً
وحللتُ ساحةَ جودهِ مُستمسكاً بالعروة الوثقى فلا أخشى الردى²
وقد تدعو الحروب والكوارث الطبيعية إلى تذكّر الرسول ﷺ وشريعته، فالشاعر عمر اللبقي³ يعود إلى ربه إثر زلزال حدث في حلب، فأودي بحياته كثير من أبنائها، وهدم العديد من مبانيها، ثم يلجأ إلى الرسول ﷺ ليشفع للمسلمين عند الله ﷻ بجاهه الشريف، فيقول:

أيا مفزع الجاني وأكرم شافعٍ وأعظم مبعوثٍ، وأشرف من مشى
إليك أنبنا والتجاننا فنحننا من الخطب والزلال قد خاف واختشى
عليه، وأسبل ذيل أمنك وأكفبه بجاهك عند الله في الصبح والمساء⁴
وهناك عوامل أخرى دعت إلى المديح النبوي، منها عوامل كتوبة الشاعر مما اقترفت يده، وذكره الله ولرسوله في هذا المقام، ومنها أدبية كالإعجاب بقصيدة نبوية والرغبة في معارضتها، إلخ... ولا يتسع المقام لذكر جميع الأسباب في هذا التمهيد الموجز، وفيما ذكر وسيدكر غناء.

¹ يحيى بن علي باشا الإحسائي (1023-1095) شاعر متصوف من الإحساء، جاور في المدينة المنورة، ينظر له: العصامي، عبد الملك المكي، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي (قطر: المطبعة السلفية) ج4، ص547.

² نفسه ج4، ص548.

³ عمر بن حسين اللبقي (1116-1189) شاعر من حلب: المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (بيروت: دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم، 1988م) ج3، ص173.

⁴ المرجع نفسه ج3، ص173.

من خلال دراستي للمدائح النبوية في شعر العصور المتابعة عامة، وفي العصر العثماني خاصة تبين أن مدائح العهد العثماني تمتاز بمظاهر متعددة تتعلق بالمضمون، من أهمها:

1 - احتواء المدحة النبوية كسائر قصائد المديح النبوي السابقة على ذكر خلال الرسول ﷺ وشمائله المادية والمعنوية¹ فالشاعر محمد بن عمر العرضي² يعرض علينا صفات النبي ﷺ المادية فيذكر أنه كان أبيض اللون، أقى الأنف، طلق الجبين، أفرق السن، أزج الحاجبين، وأنه كان إذا مشى مشى هرولةً وكأنه يحط من عل، يقول في ذلك:

استمع حليّة النبيّ المكنّى من لآلِ فرائدِ ذاتِ معنّى
أبيضُ اللونِ، أنفه كان أقى ذو جبينٍ طلقٍ وأفرقٍ سينا
خافضُ الطرفِ هيبَةً وحياءً وله حاجبٌ أزجٌ مُنكبي
إن يسر سار جملةً كائحطاطٍ من علوٍّ يجوزُ ركناً فركناً³

وهذه السمات هي نفسها المنقولة من حديث أم معبد حينما زارها الرسول ﷺ ووصفته لزوجها، ومن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام في نعتة⁴. وذكر صفات الممدوح المادية أمر معهود عند الشعراء، يقول الصفدي في شرح لامية العجم: "وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح"⁵.

¹ لن أتحدث عن المقدمة الغزلية أو غير الغزلية لأنها ستذكر في منهج القصيدة النبوية عند الدراسة الفنية.

² محمد بن عمر العرضي شاعر حلبي وفتيه (ت 1071) ينظر له في: الحلبي، محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال (حلب: دار القلم العربي، ط2، 1989) ج6، ص299.

³ المرجع نفسه، ج6، ص307.

⁴ ينظر لوصف النبي ﷺ مادياً في: المباركفوري، صفي الدين، الرحيق المختوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988) ص440-441، وهو وصف مطابق لما ورد عند الشاعر.

⁵ سالم محمد محمود، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي (دمشق: دار الفكر، بيروت: دارالفكر المعاصر، 1996) ص35.

وقد بلغ الأمر بمدح الرسول ﷺ أن أعجبوا بكل ما يتعلق به ﷺ حتى بصورة نعله، لدرجة أن ألف أحمد المقرئ كتاباً في مثال نعل الرسول ﷺ سماه "فتح المتعال في مدح النعال" أورد فيه ما قيل في هذا النعل، ومما ذكره قول الشاعر فتح الله البيلوني¹ الذي بالغ فيه كثيراً حين جعله يشفي من المرض، لمجرد أن يضعه المبتلى على خده ويتضرع إلى ربه فينال بذلك الغنى ويدفع عنه البلاء، يقول في ذلك:

مثالُ نعلِ خيرِ الأنبياءِ هو البابُ المحرَّبُ للشِّفاءِ
والصِّقَّةُ بخدِّ منك واضرَعُ بجدِّ في التوجُّه للُدعاءِ
يزيحُ عنَّا، يُبيلُ غِنَى، ويولي مني، منا يُقَرِّبُ كلَّ ناءِ²

أما سماته المعنوية فقد أفاض الشعراء في الحديث عنها مقلدين في ذلك المدح السابقين. وقد ذكر الشاعر مكِّي الجوخعي³ من خلاله ﷺ الكريمة هدايته البشرية إلى الطريق السوي بشريعته الغراء، وجوده وسخاءه، وإنجاده من يستغيث به عند الشدائد، يقول في ذلك:

أنت شمسُ العلومِ بحرِ العطايا منبعُ الفضلِ سيِّدُ الأنبياءِ
أنت مصباحُ كلِّ جودٍ، وتهدِي كلُّ سارٍ إلى الطريقِ السَّواءِ
فنداك المأمولُ في كلِّ ضيقٍ ومُرَجَى بشدَّةٍ ورخاءِ⁴

¹ فتح الله البيلوني شاعر حلبي فقيه ومفسر، وله كتب في العقيدة. ينظر له في إعلام النبلاء، ج6، ص225.

² المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد، فتح المتعال في مدح النعال تحقيق علي عبد الوهاب وعبد المنعم فرج درويش (القاهرة: دار القاضي عياض للتراث، 1997) ص223 - 224. وقد ألف المقرئ هذا الكتاب ليجمع ما قيل من

مدائح نبوية ذكر فيها مثال نعل النبي ﷺ. وينظر لثله في إعلام النبلاء ج7، ص14.

³ مكِّي بن سعيد الجوخعي (ت 1192) شاعر من دمشق أصله من حلب وله ديوان ومؤلفات، ينظر له في علماء

دمشق، ق 12 هـ، ج3، ص379.

⁴ المصدر نفسه ج3، ص380.

كما حوى مضمون المدحة النبوية حديثاً عن معجزات الرسول ﷺ، ولا سيما
حادثة الإسراء والمعراج ونبع الماء من بين يديه الشريفتين، من ذلك قول الشاعر علي
بن محمد المرادي¹ حول إسرائه إلى المسجد الأقصى، وصلاته إماماً للأنبياء، ثم عروجه
إلى السماء حتى كان قاب قوسين من ربه الذي أثنى عليه وأكرمه، وتلك منزلة لا
تعادلها منزلة، ولا يمكن لمدحة أن توفيقها حقها:

أنتَ الذي في الأنبياءِ جميعِهم كنتَ الإمامَ وما برحتَ مُقَدِّمًا
ولقد عرجتَ على البراقِ مصاحباً لأمينه يا خيرَ مَنْ وطئَ السَّما
من ذا يرومُ لنا علاكِ بمدحةٍ والله قد أثنى عليك وعظماً²

ومن معجزاته ﷺ أيضاً القرآن الكريم وحنين الجذع، وسعي الشجر إليه، وجريان
الماء من كفه الشريفة، وتحول خشبة أعطاها الرسول ﷺ لعكاشة إلى سيف طويل القامة،
شديد المتن، أبيض الحديدية. يقول الشاعر عبد الواحد بن المواز³ في ذلك:

وأُنزلَ قرآناً عليه مفصَّلاً أصارَ جميعَ الملحدين كجلمـدٍ
ووافتْ له الأشجارُ تسعى كما جرى بكفه ماءً قد روى اللِّجَبَ الصِّديّ
وقد هزَّ عزمًا حيث لاقى عكاشةً فعادَ لديه كالصقيلِ المِهْنَدِ⁴

¹ علي بن محمد المرادي (1132 - 1184) شاعر دمشقي كان مفتي دمشق، ينظر له في علماء دمشق ق 12 هـ، ج3، ص265.

² المرجع نفسه، ج3، ص265.

³ عبد الواحد بن المواز، شاعر وفقه من المغرب، عاش في القرن الثالث عشر الهجري ينظر له زيدان، عبد الرحمن،
إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس (د.م، 1348) ج 2، ص198.

⁴ المصدر نفسه، ج2، ص199، وينظر لمعجزات الرسول ﷺ في ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف
سعد، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1974) ج 1، ص172، 216، وج2، ص32 وج3، ص202 وج3،
ص198 وج4، ص123-127.

وفي مدائح العصر النبوية يلقانا أيضاً حديثاً عن الصحابة الكرام، وجهادهم مع الرسول ﷺ، إذ كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، صُبراً في الحرب، إلا أنهم لا يفخرون إن حازوا الغنائم، لأهم يرون أن الحياة يكفي فيها درع وجواد وسيف، وما سوى ذلك من مال فهو مكتسب للآخرة، يقول الشاعر أحمد بن علي بن المشرف¹ في ذلك:

ولهُ صَحْبٌ لِيُوْثٌ هَمُّهُمُ لِدَمِ الْكِفَّارِ فِي الْهِجَاءِ سَفْحُ
فَهُمُ الشَّجْعَانُ إِنْ جَاءَ الضِّيَا وَهُمْ الرَّهْبَانُ مَهْمَا جَنَّ جُنْحُ
لَا تَرَى فِخْرًا إِذَا تَنَالُوا وَلَا هُمْ جُزْعًا إِنْ نَالَهُمْ فِي الْحَرْبِ قَدْحُ
فَهُمُ الْأَنْصَارُ، لِلدَّيْنِ لَهُمْ أَبَدًا فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ كَدْحُ²

2 — وهناك مدائح نبوية جاءت في مطولات شعرية تجاوزت ثلاثمئة بيت، إذ لم تكف بالحديث عن الرسول ﷺ، وإنما انتقلت إلى الثناء على أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ثم تطرقت إلى الحديث عن خلفائه من بعده، على نحو مطولة أحمد بن المقرئ³ التي تحدث فيها عن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها فأشاد بمكانتها عند الرسول ﷺ وبمساندتها له حينما جاءت الدعوة، فكانت ملجأً له ومعيناً. يقول في ذلك:

خَدِيجَةُ عِرْسُهُ الْأَوْلَى، الْعَلَى لَهَا مَكَانَةٌ عِنْدَهُ مَا نَالَهَا الْأَخْرُ
وَالْبِرَّةُ الْمُرْتَضَاةُ الْأَنْسُ حِينَ رَأَى جَبْرِيلَ فِي أَفْقٍ فَاغْتَمَّهُ الْحَدْرُ

¹ أحمد بن علي المشرف، شاعر من نجد من أنصار الحركة الوهابية ومن رثاها في مئنتها، ينظر له في الألوسي، علاء الدين بن لقمان، الدر المنثور في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (بغداد: دار الجمهورية، 1967) ص96.

² ابن مشرف، أحمد بن علي، ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (الدوحة: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص21.

³ أحمد بن المقرئ التلمساني (ت 1041) مؤرخ وشاعر له كتاب نفع الطيب، ينظر له في: ابن معصوم، أحمد نظام الدين الحسيني، سلافة العصر (القاهرة: 1324) ص74، والزركلي، خير الدين، الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، 1986)، ج1، ص237.

وزيرةُ الصِّدقِ في الإسلامِ ملجؤهُ إذ لا وزيرَ له فيه ولا وِزرًا¹
ومن ذلك أيضاً مطولة أحمد بن المشرف الذي تحدث فيها بعد المديح النبوي عن
عهد الخلفاء الراشدين، ثم أتبعه بذكر خلافة بني أمية والعباسيين، ومنها قوله في
الأمويين الذين كان أولهم معاوية بن أبي سفيان صهر النبي ﷺ والمعروف بعدله
وحلمه، وسليمان بن عبد الملك الذي أسند الخلافة إلى العادل عمر بن عبد العزيز
الذي حكم بشرع الله. يقول في ذلك:

بنو أمية أملاكٌ غطارفةٌ حازوا الخلافةَ بعدَ السادةِ الخُلَفا
منهم معاويةُ صهرُ النبيِّ ومَنُ قد كان بالحلمِ والإنصافِ متَّصِفا
لكن سليمانُ أفضاها إلى عمرِ أكرمَ به من إمامٍ تابعَ السلفا
أحيا سبيلَ الهدى من بعد ما درست وأظَهَرَ العَدْلَ وقتَ الجورِ حينَ عفا²

وبعض المدائح النبوية جاءت ضمن مدائح الأشراف من الحكام وغيرهم. وفي
هذا المجال ترد مقتضبة سريعة، لأن الغاية هي إظهار قرابتهم من الرسول ﷺ، من
ذلك قول الشاعر عبد الرحمن بن عيسى المرشدي³ في مدحة له للشريف حسن وابنه
طالب، إذ ذكر أنه ينتسب إلى أفضل الرسل سيدنا محمد ﷺ الذي نصره الله بالرعب
من مسيرة أشهر، يقول:

ملكٌ تذكُرنا مواقعَ حدِّه في الهامِ وقعةَ حدِّه في خيبرِ
أعظِمُ بها من نِسْبَةِ نبويةٍ علويةٍ تُنمى لأصلِ أظهيرِ

¹ فتح المتعال، ص 537.

² ديوان أحمد بن علي بن مشرف، ص 87.

³ عبد الرحمن بن عيسى المرشدي (975 - 1037)، شاعر من الحجاز، كان مفتي الحرم المكي، ثم قتله الشريف أحمد بن عبد المطلب. ينظر له في: المحي، محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة: المطبعة الوهبية، 1869)، ج 2، ص 369.

قد شُرِّفَتْ بَدْءاً بِأَشْرَفِ مُرْسَلٍ وَنَهَايَةً بِالسَّيِّدِ الْحَسَنِ السَّرِيِّ
لَا زَلْتَمَا فِي ظِلِّ مَلِكٍ بَاذِخٍ وَجُنُودُ مَلِكِكُمْ مَلُوكُ الْأَعْصَرِ
مَسْتَمْسِكِينَ بِهَدْيِي جَدِّكُمْ الَّذِي بِالرَّعْبِ يَنْصُرُ مِنْ مَسَافَةِ أَشْهُرٍ¹

3- وأحب أن أشير إلى أن مدائح لأنبياء آخرين وجدت في هذا العصر مستقلة عن المدائح النبوية للرسول ﷺ من ذلك قول الشاعر عثمان الخطيب² في تقرير سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام الذي ثوى في حلب الشهباء، وكان عند ربه مرضياً، وقد ناجى هذا النبي ربه سبحانه وتعالى علّه يرزقه غلاماً زكياً بحيث يرث النبوة والعلم منه، فاستجاب المولى تعالى نداءه، ورزقه ولدًا تقيًا، يقول في ذلك:

وَإِذَا مَا حَلَّتْ فِي حَلَبِ الشَّهْبَاءِ ءِ فَاقْصِدْ هُنَالِكَ بَدْرًا هَيَّأً
قَبْلَ الْأَرْضِ عِنْدَهُ وَأَتْلُ جَهْرًا ذَكَرَ مَوْلَاكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا
وَتَرَجَّ النَّدَى فَأَنْتَ لَدَى مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْدَعَاءِ قَطُّ شَقِيًّا
خَافَ مِنْ بَعْدِ ضَلَالِ الْمَوَالِي فَدَعَا رَبَّهُ دَعَاءً خَفِيًّا
وَهَنَّ الْعِظْمُ وَامْتَلَأَ الرَّأْسُ شَيْبًا يَا إِلَهِي فَمَنْكَ هَبْ لِي وَلِيًّا
يَرِثُ الْعِلْمَ وَالنَّبُوَّةَ مِنِّي وَلَدَى رَبِّهِ يَكُونُ رَضِيًّا
فَاسْتَجَابَ الدَّعَا وَبَشَّرَهُ مَنْ لَمْ يَزَلْ مُحْسِنًا جَوَادًا غَنِيًّا
بِغَلَامٍ كَبِيرٍ تَمُّ لَمْ يَجِدْ سَعَلَ بِدِيْعِ السَّمَاءِ لِيَحْيَى سَمِيًّا³

وقد اقتبس الشاعر معاني هذه الأبيات من سورة مريم، كما اقتبس أيضاً حرف الروي من فواصل آياتها، إذ انتهت أبياته بالياء المشددة كما في الآيات القرآنية الكريمة.

1 خلاصة الأثر، ج2، ص272 - 274، وفي قوله (بالرعب ينصر من مسافة أشهر) إشارة إلى حديث الرسول ﷺ المعروف الذي جاء فيه: "ونصرت بالرعب مسيرة شهر"، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التيمم، برقم 335، ج2، ص122.

2 الموصلي عثمان الخطيب (ت 1144) شاعر صوفي زاهد من الموصل ينظر له في سلك الدرر، ج3، ص170.

3 سلك الدرر، ج3، ص171، وينظر لمثلها أيضاً في الروض النضر، ج2، ص19-20، في مديح زكريا ويونس.

4 - ولكن كثيراً من مدائح العصر العثماني حوت على غرار أخواتها في العهد المملوكي تطرفاً وحيدةً عن جادة الصراط السوي، نجم عن انتشار الفكر الصوفي الذي نظر إلى الرسول ﷺ نظرة تقديس جاوزت الحدّ، وقد بدا هذا في:

أ - الاستغاثة: وهي لجوء الشاعر إلى الرسول ﷺ يستنجده علّه ينقذه من لأواء العيش، ومن جحيم الآخرة في يوم الشفاعة الكبرى، كما فعل الشاعر عبد الرحيم القدسي¹ الذي ذكر أن الرسول ﷺ قد خُصَّ بالشفاعة الكبرى، ولهذا ترجوه الخلائق كلها، وتشير إليه لينقذها من معاناة الحياة:

يوم اللقا سبيل النجاو يبلّغُ	هذا النبي الهاشمي حمّـدٌ
جمع الخلائق بالشفاعة يسبغُ	بمقامه المحمود خُصَّ مُشَفَّعاً
في فتح باب الفضل ما يتسوَّغُ	كلُّ يشيرُ إليه ليس لغيره
من بعده أضحى لذاك مسوَّغُ ²	ما نال هذا قبله أحدٌ ولا

وقد يستغيث المداح بجاه الرسول ﷺ أو به مباشرة ليخلصهم من بلوى أصابتهم. فالشاعر عبد الحمي الخال³ يستنجد بالرسول ﷺ وكان قد جاوره، علّه يشفيه من مرض عضال ألم به، وكأنه قد ذكر البوصيري⁴ والحلي⁵ اللذين شفيا بقصيدتيهما، وكأنه

1 عبد الرحيم بن أبي اللطف القدسي (ت 1104) شاعر ومفتي في ديار القدس، سلك الدرر، ج3، ص2.

2 سلك الدرر، ج3، ص5، وينظر لمثلها أيضاً في المرجع نفسه ج2، ص198.

3 عبد الحمي بن علي المعروف بالخال الطالوي الأرتقي (ت 1117) شاعر متصوف من دمشق، له موشحات كثيرة، انظر عنه علماء دمشق ق 12 هـ، ج1، ص153.

4 محمد بن سعيد البوصيري (608-697)، شاعر مصري كان قد أصيب بالفالج فنظم مدحة نبوية وقرأها كثيراً، فرأى النبي ﷺ عسح على رجليه، فلما استيقظ رأى أن الله قد شفاه. ينظر إلى ذلك في مقدمة ديوانه ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1955)، ص5.

5 عبد العزيز بن سرايا الملقب بصفي الدين الحلبي (677-750)، شاعر من الحلة في العراق، عرف بمدائحه لبني أرتق، وبديعته التي ذكر أنه شفي بها من الفالج أيضاً، ينظر له في الصفدي، خليل بن أيبك، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، ط1، 1998م)، ج3، ص68.

كان يعتقد أن الرسول يسمع الاستغاثه به كما يسمع الصلاة عليه، ولهذا راح يرجوه أن ينظر إليه بعين الرأفة، يقول شاكياً له ﷺ:

رسول الله قد أصبحت نضواً من الأوجاع منطرخٌ عليُّ
وقد عجزَ الطبيبُ وقلُّ صبري وأقلقَ جبرتي مني العويلُ
ولم ألقَ لأدواءٍ تراءتُ على جسدي وأعظمها الدخيلُ
سوى أني نزلتُ وقلتُ حسبي كريمٌ لا يُضام به نزيل¹

ومن الأفضل ترك هذا والاستغاثه بالمولى تعالى الذي قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186) ولأن الرسول ﷺ قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»².

ب — ومن هذا التطرف أيضاً اعتقاد المتصوفة من مداح النبي ﷺ في فكرة النور الحمدي، وتعني أن الله سبحانه قد كون الرسول ﷺ من نوره قبل أن يخلق آدم عليه السلام، فكان بذلك أول مخلوق في الوجود، ثم انتقل هذا النور من صلب نبي إلى آخر حتى ظهر في النبي ﷺ ليكون خاتم المرسلين والنبیین، وقد عبر الشاعر إبراهيم الفتال³ عن هذا بقوله:

سيّد المرسلين خيرُ نبيٍّ شافعُ الخلقِ يوم تُتلى العيوب
مبدأ الكون ختم كلِّ نبيٍّ قد جباهُ الحيا قريبٌ مجيب⁴

¹ علماء دمشق 12 هـ، ج 1، ص 163، وينظر مثله أيضاً في سلك الدرر، ج 2، ص 70، وقد وردت الاستغاثه بجاه الرسول ﷺ في التمهيد عند ذكر الكوارث الطبيعية، ينظر لذلك ص 6.

² سنن الترمذي، رقم الحديث (2440) وينظر في الرد على الاستغاثه في: المنجد، محمد صالح، محرمات استهان بها الناس (الرياض: دار الوطن للنشر، ط 2، 1414)، ص 17-18.

³ إبراهيم الفتال (ت 1098)، شاعر ومدرس من دمشق من شعراء القرن الحادي عشر الهجري: علماء دمشق ق ج هـ، ج 2، ص 524.

⁴ المرجع نفسه، ص 527.

وكذلك قال سعدي العمري: ¹

تبدت لكي يقي لها شرف المبدأ نبيُّ به الأكوانُ من نورِ ذاته
وآدم ما عانى الحياة، ولا اعتدى نبيُّ حوى سرَّ الوجودِ واهتدى
وكيف؟ وقد ضُمَّتْ به الجوهرَ الفرداً وقُدسَ في الأرحامِ أصدافُ نورِهِ
أسرته كالشمس والقمر الأهدى ² إلى أن تجلَى للوجودِ وأشرقت

ويقول أصحاب فكرة النور المحمدي إنه لولا الرسول ﷺ لما كان هناك أرض ولا
سما ولا وجود، ولا جنة ولا نار، لأن الله سبحانه لم يخلق هذا كله إلا من أجله،
فكل فضل منوط به. ويردد عبد الله حجازي ³ هذا بقوله:

إني وفيه ذلك النورُ الذي بضياته يهدي إلى المعبودِ
أعني به طه الأمين المصطفى سر الوجود خلاصة الموجود
ولأجل خدمته الجنان تزخرفت ومن السعادة خدمة المسعود ⁴

ويقول الشاعر أحمد العكي ⁵ في مبالغة وتطرف شديدتين أيضاً:

نبيُّ هدىً، لولاه ما نال آدمُ سجال الرضى مما أصابَ وما أبدى
وما خمدت نارُ الخليل التي غدت تشب ولا كانت سلاماً ولا برداً
ولا أنس النورَ ابنُ عمرانَ عندما تجلَّى له من جانبِ الطورِ فاهداً

¹ سعدي العمري بن عبد القادر (1080-1147)، شاعر وعالم من دمشق: سلك الدرر، ج2، ص151، وينظر
لمثله في علماء دمشق ق 12 هـ، ج3، ص401.

² سلك الدرر، ج2، ص152-153.

³ عبد الله حجازي (1096هـ) شاعر ونقيب الأشراف في حلب، له مؤلفات متعددة: خلاصة الأثر، ج3،
ص71، وفي كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1975)، ج6، ص115.

⁴ الجندي، أمين، ديوان الشيخ أمين بن خالد الجندي، تحقيق محمد كمال بكداش (بيروت: مطبعة المعارف،
1321 / 1999-2000) وقد خمستها الجندي فحفظها كاملة.

⁵ أحمد العكي المعروف بيطحيش (1095-1147)، شاعر وعالم من عكا، له مؤلفات عديدة: سلك الدرر، ج1، ص152.

ولا شملت من قبلُ قِيضَةُ نوره سرائرَ أهلِ العزمِ فامتألتُ رشداً¹
ويقول أحمد شاكر الحكواتي² في مغالاة لا يمكن قبولها بأي حال من الأحوال:
وجودُ الأكوانِ والعرشِ والكرسيِّ واللوحِ من سنا أنوارك³
وهذه المغالاة قلد بها الشعراء العثمانيون متصوفة العهد المملوكي، فالشاعر
البوصيري مثلاً يقول في برده:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةً من لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ
وكلُّ آي أتى الرسلُ الكرامُ بها فإنما اتصَلتْ من نورهم بهم⁴
وفي هذه المبالغة والتطرف اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان حَيِّدة عن الحق
وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110، فصلت: 6). ويكفيه فخراً وعظمة أنه رسول رب
العالمين الذي اصطفاه خالقه من بين مخلوقاته كلها لهداية البشرية إلى الطريق القويم،
وأنه أثنى عليه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4).

ج- ومن التطرف في المدائح النبوية أيضاً حديث الشعراء عن رؤيا الرسول ﷺ
ربه عز وجل في يوم الإسراء والمعراج، فالشاعر أبو السعود المتنبّي⁵ يذكر أن الرسول
ﷺ قد ارتقت منزلته حين وصل إلى حضرة القدس ورأى ربه من غير حجاب فنال
بذلك ما يتمناه، يقول:

1 سلك الدرر، ج1، ص153.

2 أحمد بن عمر الشاكر الحكواتي (1165-1121) شاعر من دمشق كان كثير التطواف. سلك الدرر، ج1، ص155.

3 سلك الدرر، ج1، ص155، وينظر للرد على من قال إن الوجود كله قد خلق من أجل الرسول ﷺ في شقفة،

محمد فخر، التصوف بين الحق والخلق (الصفاء / الكويت: الدار السلفية للنشر والتوزيع، 1983)، ص79-80.

4 ديوان البوصيري، ص194.

5 أبو السعود سعود بن يحيى المتنبّي (ت1127): شاعر من دمشق له ديوان شعر سماه مدائح الحضرات بلسان

الإشارات: علماء دمشق ق12هـ، ج1، ص314.

سيدٌ قد سما لحضرةٍ قُدسٍ
ورأى ربّه بدونِ حجابٍ
نال فيها مُرادَه وسؤاله
وتجلى له وحازَ وصاله¹

خصائص المديح النبوي الفنية

ظهرت في مدائح العصر العثماني النبوية خصائص في منهج القصيدة، وفي موسيقاها، وفي تشكيلاها اللغوي:

1- منهج القصيدة

كان الأنموذج التقليدي للقصيدة العباسية لا يكاد يختلف عنه في عصر الدول المتتابعة، ومنه العصر العثماني. وقد قلد شعراء المديح النبوي هذا المنهج مع تغيير يناسب المقام، فاستهلوا كالقداامي بالمطلع الغزلي، الرمزي منه و غير الرمزي، لأنهم، ولا سيما مداح الرسول ﷺ، عدّوا الغزل منتزعاً من صميم الحياة البشرية، متصلاً بأعمق أعماقها، صادراً عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، والإيمان العميق بصدق صاحب الرسالة الحمديّة، واعتقاد جازم باستحقاقه للحب الشديد الذي لا يعادله حب.

ولكن هذا الغزل اتسم بالسمو الخلقى والفكري، إذ تخلى عما يشين فبدا محتشماً، وعني شعراؤه بذكر الأماكن الحجازية والشوق إلى صاحبها² يقول ابن حجة الحموي³: "إن الغزل الذي يصدر عن المديح النبوي يتعين على الناظر أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضائل، مطرباً بذكر سلع ورامة، وسفح العقيق والعذيب، والغوير ولعلع،

¹ المرجع نفسه، ص321.

² القيرواني، الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة) ج2، ص124، والموسى، فيروز، مقال بعنوان "المقدمة الغزلية للمدحة النبوية"، مجلة مجمع اللغة العربية بالأردن، 1999م، عدد 57، ص84.

³ ابن حجة الحموي (767-837) شاعر من حماة عرف ببديعته وبأسلوبه المصنوع، وله كتاب خزنة الأدب. ينظر له في درنيقة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996) ص48.

وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر...
وقل من يسلك الطريق من أهل الأدب".

فمن الغزل الرمزي الذي توفرت فيه هذه الشروط قول الشاعر أحمد الجامي¹
وهو يذكر الأماكن الحجازية في مستهل مدحته النبوية:

ما لَدَّ لي بعدكم يا عربَ ذي سلمٍ رُبْعٌ ومن بُعِدكم جفني القريحُ دُمي
وما جرى ذِكْرُ ذِيكَ العقيقِ وما والاه إلا جرى مني عقيقُ دمي
ولا جَرَّتْ نسماتُ من دياركم إلا أهأجتْ بقلبي لا عَجَ الألم
لهفي على الروضةِ الفِحا ومُنبرِها وَقفةٌ بمصلى سيِّدِ الأُمم²

وبعض الشعراء استهل بالتغزل بفتاة أحلامه، لكنه ذكر بعد أنه ترك هذه السيرة

وتوجه إلى الرسول ﷺ ليمدحه على خلاله الحميدة، من ذلك قول خليل البكري³:

أَيُّ دَمْعٍ لا يَسْحُ وشَجِّ في الحَبِّ يَصْحو
كيف أصْحو من غرامٍ فيه للعشاقِ نُجْحُ
يا عدولي دَعْ ملامي فدوامُ اللومِ قَبْحُ
ودع الهجرَ فقلبي أَن أنْ يثنيه مَدْحُ
لرسولٍ جاءَ بالأنف وارِ ليلَ الشكِّ يَمْحو⁴

¹ أحمد الجامي المدني شاعر من المدينة المنورة (ت بعد 1200) ينظر له في البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بحة البيطار (بيروت: دار صادر، 1993)، ج1، ص287-288.

² المرجع نفسه، ج1، ص287-288.

³ خليل البكري الصديقي (1098-1173) كان مفتي دمشق، وتوفي في إستانبول، ينظر له في علماء دمشق ق12هـ، ج3، ص143.

⁴ المرجع نفسه ج3، ص143، وينظر لمثله في المرجع نفسه ج3، ص400.

واستهل بعضهم مدحته النبوية بمناجاة المولى تبارك وتعالى، وقد ذكر عمر موسى باشا أن الشاعر فتح الله بن النحاس¹ قد جدد في ذلك، يقول: "إن الجديد الملاحظ في هذه المدحة النبوية أن الشاعر لم يقصرها على مدح الرسول ﷺ كما هو معروف في النبويات، وإنما رأيناه يتجاوز أسلوب الشعراء فيخاطب الله مباشرة... وهذا الاستخدام فيما أعتقد أسلوب جديد وتطور ملحوظ في المدائح النبوية يطالعنا به الشاعر لأول مرة في تأريخ النبويات". ويعلل ذلك بأنه ناجم عن التأثر بالفكر الصوفي² ولكن الدكتور موسى باشا يذكر في كتابه العصر المملوكي أن الشاعر المملوكي ابن مليك الحموي (ت917هـ) استهل مدائحه النبوية بمناجاة الله عز وجل،³ وبذلك يكون هو البادئ بذلك لا ابن النحاس، يقول ابن النحاس:

يا مَنْ لَمَن يَدْعُوهُ سَامِعٌ	وإِليهِ مِنْهُ الأَمْرُ راجِعٌ
يا رَبِّ ناصيتي تَرا	بُك ما كَتَبْتَ عَلَيهِ واقِعٌ
ماذا يَضُرُّكَ وهو عا	صٍ أو يَفِيدُكَ وهو طائِعٌ
أنا عبدك الشِيخِ المَسِي	ءُ لَبابِ عَفْوَكَ جئتُ قارِعٌ
ما في يَدَيَّ ولا لَدَيَّ	مِن الوَسائِلِ والذرائِعِ
إِلا بِمِجاوِرَةِ الكِـرا	مِ غِيوِثِ سَلعِ والأجارِعِ
خِيارِ الخِلائِقِ نائِلاً	وَتُقى وأَكْرَمِهم طَبائِعِ ⁴

¹ فتح الله بن النحاس (ت1052)، شاعر حليي عرف بأسلوبه المطبوع. كان لاهياً عابثاً ثم تاب وجاور الرسول ﷺ ودفن في البقيع، ينظر له في الخفاجي، أحمد بن محمد، ورحمة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق عبد الفتاح الحلو (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1967)، ج2، ص223، وسلافة العصر، ص276، والأعلام، ج5، ص153.

² باشا، عمر موسى، العصر المملوكي (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، 1989)، ص102-103.

³ باشا، موسى، العصر العثماني (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، 1989)، ص399-400.

⁴ الخطراوي، محمد العيد، ديوان فتح الله بن النحاس (المدنية المنورة: مكتبة دار التراث، 1991)، ص94، والطباخ، محمد راغب، العقود الدررية في الدواوين الحلبية (حلب: المطبعة العلمية، 1347)، ص5.

وقد يناجي بعضهم الرسول ﷺ، ويذكر الشباب الذي ولّى والموت الذي قرب، وتأخير التوبة وضرورة طاعة الله سبحانه و تعالى الذي نجه، ثم يروح يقول: ولكن ما حيلتنا إذا كان أعداؤنا يكيّدون لنا وهم أنفسنا وأهواؤنا، ثم يستدرك ويقول: ولكن الرسول ﷺ هو طيبنا الذي ينقذنا من شرها وضرها يقول إبراهيم الفتال في ذلك:

كلنا سيدي إليك نؤوب	مالنا لا نعي اللقا ونتوب
إن عمر الشباب ولّى وأبقى	ما جناه فيه وذاك ذنوب
فإلى كم هذا التواني وقد جا	ء نذير الحمام وهو المشيب
ندعي الحبّ فريّةً إنما الحبُّ	حريٌّ بأن يطاع الحبيب
إن أعداءنا توالى علينا	نفسنا والهوى وعقل مريب
من يرجى لدفع داء عضال	غير خير الورى وذاك الطبيب ¹

وقد استهل بعضهم نبويته بوصف الطبيعة وجمالها البديع في فصل الربيع حيث الرياض المنعشة، والطيور المغردة التي تبدو كحسان الجنة، وكان هذه الطبيعة الفاتنة قد ذكرتهم بالمولى تعالى وبرسوله ﷺ، يقول الشاعر يوسف الحسيني² قبل أن يبدأ في مدح النبوي:

جاء فصل الربيع والصيفُ دانٍ	حيث بتنا من الجففا في أمان
في رياضٍ إذا بكى الغيثُ فيها	قهقهتْ بالمُدام منه القناني
حيث سجعُ الطيورُ سجعُ خطيبٍ	قد رقى مُعلناً على الأغصان
وكان الغصونُ قاماتُ غيدٍ	حين ماستُ حورٌ لدى الولدان ³

وهناك من هجم على موضوعه مباشرة، ولكن ابن رشيق القيرواني عاب على من فعل هذا، وسمى قصيدته البتراء. أما ابن الأثير فقد بين أن ذلك يمكن في قصائد

¹ علماء دمشق، ق 11 هـ، ج 2، ص 525-526.

² يوسف بن حسين الحسيني النقيب (ت 1153هـ) شاعر من حلب. ينظر له في إعلام النبلاء، ج 6، ص 479.

³ إعلام، ج 6، ص 481-482.

الحروب والثورات، لأن النفس تتوق إلى سماع الخبر لا الغزل،¹ ولا أرى في ذلك مانعاً، بل أراه يدل على توق الشاعر الشديد للرسول ﷺ توقاً جعله يذكره منذ مطلع قصيدته، أو لعل حاجته دعته إلى الاستنجاد به كما يستنجد الملهوف بجيش قوي على نحو قول الشاعر مكّي الجوخني:

بك يا سيد الأنام التجائي وعياذي من طارق الأواء
يا ضياء الوجود يا رحمة الله التي ترنجي لكشف البلاء²

وعلى أي حال، فالشاعر ينتقل من المطلع والمقدمة إلى ذكر شمائل ممدوحه الرسول ﷺ المادية والمعنوية، وذكر أعماله ومعجزاته. إلا أن بعضهم ذكر رحلته إلى الرسول ﷺ وتحدث عن شوق الناقاة إلى رؤيا تلك الأماكن، وكأنه رمز بها إلى نفسه التي أشغفت بالمصطفى الحبيب فسارعت إليه، إلى تلك الرياض الطاهرة التي ترتاح فيها النفس المؤمنة، يقول عبد العزيز الفشتالي³ معبراً عن هذا:

أرحها مطايا قد تمشّى بها الهوى تمشي الحميّا في مفاصل نشوان
لقد نفحت من شبح يثرب نفحةً فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني
وأذكرني نجاداً وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حيّاني
أحنّ إلى تلك المعاهد إنها معاهد راحاتي وروحي وربحاني
إليك رسول الله صممت عزمة إذا أزمعت فالسخط والقرب سيان⁴
وتختتم القصيدة النبوية بالصلاة على الرسول ﷺ، وذلك على نحو قول أحمد الوراق⁵

¹ القيرواني، العمدة، ج2، ص117، وبكار، حسين، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث (بيروت: دار الأندلس، 1983)، ص213.

² القيرواني، العمدة، ج3، ص380.

³ عبد العزيز الفشتالي (ت بعد 1030 هـ) شاعر من المغرب له مدائح نبوية، ينظر له في سلافة العصر، ص583.

⁴ سلافة العصر، ص584-586.

⁵ الشاعر أحمد بن صالح الوراق (1123-1189هـ) شاعر حلبي مطبوع ومعروف له مدائح نبوية كثيرة: إعلام النبلاء، ج7، ص83.

صلى عليك الله ما هبَّت صَبَا سَحراً فهاجَ الصَّبُّ من نفحاتِها
وكذا على الآلِ الكرامِ وصحبك الـ أطهارَ مَنْ كَرُمَتْ بطيب ذواتِها
أبدأً على مَرِّ الجديـدِ مسلماً لا نالَ حَسَنُ الحَتَمِ من بركاتِها¹
وقد تختم قصائد مدائح الصحابة والأشراف بالصلاة على الرسول ﷺ.²

والمدحة النبوية قد تأتي مطولة تتجاوز ثلاثمئة بيت،³ وقد تكون متوسطة الطول، وطولها يتبع درجة انفعال الشاعر. ذلك لأن القصيدة كأموج البحر تتأبع وتتدفق ما كان هناك دافع يجرّكها، إلى أن تستقر على الشاطئ، وإن كان النقاد يفضلون ما توسط منها.⁴ والمألوف بين الخمسين ومئة بيت، ولكنها يجمع بينها وحدة عضوية تربط بين أقسامها، لأن موضوعها واحد وإن بدا متعددًا، فالغزل رمز للرسول ﷺ أو يتخلص الشاعر منه بذكر الحبيب المصطفى، فذكره يخلصه مما يعانیه. والطبيعة تذكر بقدرة الله وذكر المولى تعالى يستدعي ذكر الرسول ﷺ، وكذلك حال الشيب والتوبة. أما ما سوى ذلك من مضمون المدحة كالحديث عن صفاته الخلقية والخلقية، وعن معجزاته وصحابته فهو لب المدحة.

ووحدة البيت أو استقلاليتها أمر مفضل في نقدنا العربي القديم.⁵ ولا تعارض بين هذه الوحدة والوحدة العضوية، لأن الرابط الجامع بين المعاني هو التجربة الشعورية والحالة النفسية التي تصدر عنها المدحة.

وأحب أن أبين أخيراً أن هذا المنهج قد رسخه البوصيري في برده، وقلده شعراء العصر، إلا أن بعض المديح النبوي جاء على شكل مقطعات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة كما عند الشاعر محمد أحمد الكنجي:⁶

¹ سلك الدرر، ج 1، ص 115، وينظر مثلها في حلية البشر، ج 1، ص 88.

² على نحو قصيدة أمين الجندي في مدح خالد بن الوليد، ديوان الشيخ أمين الجندي، ص 17.

³ مر معنا عند الحديث عن المضمون ذكر مطولة ابن مشرف والمقري وشواهد لهما، ينظر لذلك ص 8-9.

⁴ بناء القصيدة في النقد، ص 232، وضيف، شوقي، في النقد الأدبي (القاهرة: دار المعارف، 1962)، ص 160.

⁵ بناء القصيدة في النقد، ص 283.

⁶ الشيخ محمد أحمد الكنجي شاعر من دمشق من القرن الثاني عشر الهجري: سلك الدرر، ج 1، ص 26.

يا رسولَ الرضا ويا خيرَ هادٍ
طُيبَ ذكراك في فمي كلَّ حينٍ
للبرايا ورحمةً للناس
هو أحلى من ماءِ حبِّ الآس¹

2- موسيقى المدحة النبوية

الشعر نغم ينقل صاحبه من عالم إلى عالم، وتسبح فيه الروح بين المعاني والصور فيؤدي إلى نفاذ المعنى إلى شغاف القلب، فيفعل في النفس فعل السحر الحلال وبرد الماء الزلال.²

والمدائح النبوية من أكثر القصائد التصاقاً بالنفس البشرية، ذلك لأنها تخاطب الروح، ويعيش صاحبها مع فضائل المصطفى ﷺ وفعاله فيودُّ لو كان معه ليشعر بطمأنينة النفس، ويتخلص من لأواء الحياة... وإذا كان ذلك قد فاته فليكن له من مديحه الزاد الروحي، وليكن من نعماته وسيلة للتعبير عن خلجات نفسه ووجه، ومن هنا كانت المدائح النبوية إلا ما ندر ذات إيقاعات عذبة شجية، ولعل بعضها صلح لرقته أن يكون نشيداً يترنم به المترنمون.

وقد اتسم أدب العهد العثماني بفيض من القصائد التي تثني على المصطفى الحبيب، ولعل لكثرة التصوف وانتشار الأناشيد الدينية التي يتغنى بها أصحابه أثراً في ذلك. وقد جاء بعضها على موسيقى الشعر التقليديّة الخليلية، وأخرى على الموسيقى المستحدثة.³ ولأحاسيس الشاعر ودرجة انفعاله أثرهما الكبير في اختيار البحر أو أنموذج النغم.

¹ المرجع نفسه، ج1، ص26.

² هلال، ماهر مهدي، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب (بغداد: دار الحرية ودار الرشيد، 1980)، ص44.

³ الموسيقى المستحدثة مصطلح أطلق على ما جدّ من نعمات موسيقية في الشعر العربي منذ العصر العباسي مما لم يأت على الأوزان العروضية الخليلية، ولا يعني الاستحداث بالنسبة إلى عصرنا هذا.

1- فمن المدائح النبوية التي جاءت على العروض الخليلي التقليدية قول الشاعر أمين الجندي وقد نظم على البحر الطويل نبويته التي قال فيها:

شمائله تُنيك عن حسنِ خلقه فقل ما تشا في وصف تلك الشمائل
وأخلاقه فاه الكتابُ بمدحها ولاسيما الإعراضُ عن كلِّ جاهل¹

فالشاعر أراد أن يعبر عن سمو أخلاق الرسول ﷺ، وسعة حلمه وصدوره فاختر البحر الطويل لاتساعه وفخامته، ولأنه أيضاً يصلح للتعبير عن النفس الهادئة المطمئنة. أما الشاعر موسى السباعي² فقد اتكأ على البحر البسيط ليُعرب عن إعجابه بالرسول ﷺ، وذلك في قوله:

الفتاحُ الخاتمُ المفضالُ شافعنا خيرُ النبيينَ من بالشرعِ مرسول³

وقد جاء بالصفات معرفة بأل في انسياب عذب ليشعرنا من خلال التعريف بإعجابه الشديد به، ذلك الإعجاب الذي ولد عنده حيوية ونشاطا تبدئياً في تفضيله للرسول ﷺ وذكر أعماله الخالدات. أما الشاعر العشري⁴ فقد ترنم بالمديح النبوي على البحر الكامل، وهو بحر متدفق ذو حركات متعاقبة، وتقليبات متعددة، يقول فيه:

لولاه ما الإسلامُ صار بعزّة مُترَفَعاً والكفرُ صار مشردا
لولاه ما أمّ الحجيجُ ليثرب ويأثره حادي المطايا قد حدا
هو صفوةُ الرحمن، بل هو حجة لله، وهو على البرية أشهدا⁵

1 ديوان الشيخ أمين الجندي، ص2.

2 موسى بن عمر السباعي الحمصي (1191-1255هـ) وعالم جليل من حمص، حلية البشر، ج3، ص1567.

3 المرجع نفسه، ص1569.

4 هو سعيد بن محمد الخروصي الملقب بالعشري: من شعراء عُمان في القرن الثاني عشر الهجري، ينظر له في

مقدمة: محمد عبد المنعم خفاجي، ديوان العشري (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1981).

5 ديوان العشري، ص131.

فهو قد اهتزت مشاعره لسمو مكانة الرسول ﷺ فراح يكرر عبارة "لولا ما" وهو يشعرنا بهذا التكرار بطربه لخلاله العظيمة، وكان لهذا أثره في تذوق النص فنياً، إذ استقطب وعي المتكلم ووكد لديه متعة، ولا سيما أن شاعرنا أهمل تكراره هذا بالتقطيع الموسيقي المتوازن بين "هو صفوة الرحمن"، و"هو حجة لله" الذي أكسب الأبيات أيضاً إيقاعاً جميلاً ونعماً متماوجاً.

ولكن بعض مداح الرسول ﷺ نظموا على أبحر قصيرة، فجاءت مدائحهم أناشيد عذبة، يترنم بها الكبار كما يترنم بها الصغار، لما فيها من نعمة طربة حلوة، فالشاعر أحمد المقرئ يثني على الرسول ﷺ بمدحة على البحر المحدث فيقول:

فاقَ النبيينَ جاهاً	وسطوةً وجلالاً
فما لأحمدَ ندري	في المرسلينَ مثلاً
هذا وإن كان منهم	والكلُّ حازوا الكمالاً
ففي السما نيراتٌ	وكلها تتلالاً
وليس منها مضاهٍ	للمشمس في النور لا، لا ¹

فهنا نرى التنوين في البيت الأول يضيف عليه رنة عذبة الجرس، وكذلك الحال في تكرار "لا".

يقول الأستاذ غازي طليمات: "إذا انتقلت من النبر الذي يعرو بعض الكلمة لتصغي إلى إيقاع الكلمات المنسوقة في عبارة تامة، وأحسست أن تناغماً خاصاً ينتظمها فقد وقفت على ما تسميه الصوتيات الحديثة التنغيم، وجوهر التنغيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات خاصة تنجم عن عاطفة يحسها، وفكرياً عن معنى يعتلج في ذهنه، وعضوياً عن تغير في عدد الهزات التي تسري في وترى الحنجرة، فيزيد الاهتزاز

¹ فتح المتعال، ص 453.

أو ينقص وفق الغرض الذي يتوجه إليه الكلام¹. وقد تحقق هذا التنغيم العذب في هذه الأبيات لما فيها من تنوين وتكرار لكلمة "لا" في آخر بيت، فضلاً عن تكرارها في الروي بعد حرف الردف الألف. وبذلك شارك الإيقاع الداخلي والخارجي في الدلالة على المعنى، كما شاركت الصورة التشبيهية في ذلك، مما قوى الدلالة وزاد في الإحساس بعظمة خلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - المشرقة الوضاءة.

2 - وللإيقاع أثره في التعبير عن التجربة الشعورية، ولعل هذا يزداد في الموسيقى المستحدثة التي تقوم على تنظيم متوال لعناصر موسيقية متغيرة، ويبدو الإيقاع في "النظام مع التغير وفي التوازي والتكرار"² أكثر طرباً للنفس وإحساساً بعذوبة الأبيات، وما الشعر إلا إيقاع يعكس ما في النفس من أحاسيس ومشاعر³ وكان العرب منذ العصر العباسي قد فتحوا الباب أمام الشعراء لينوعوا في أنغامهم، وقد أجاد بعضهم فقلد، وقصر آخرون. ومن هنا فقد جاء إيقاع المدائح النبوية على مزدوجات تارة ورباعيات ومخمسات وموشحات أخرى.

فمن المزدوجات، وتعني انتهاء الشطرين بحرف واحد⁴ قول إبراهيم الخياري⁵:

نبينا المبعوثُ بالدلالة لمنهج الحقِّ والرسالة
فمهدُّ الفروعِ والأصولاً وبينَ المعقولِ والمنقولاً⁶

هذه المزدوجة حوت في كل بيت نغمة متكررة في الشطرين، وهي نغمة تختلف من بيت لآخر، وهذا ما يجعلها سهلة الحفظ، فتكون بذلك وسيلة للتعليم لما فيها من

1 طليعات، غازي، في علم اللغة (دمشق: دار طلاس، 1997) ص154.

2 الحسنوي، محمد محمود، الفاصلة في القرآن (حلب: دار الأصيل، د. ت)، ص195.

3 حمدان، ابتسام أحمد، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي (حلب: دار القلم العربي، 1997)، ص277.

4 خلوصي، صفاء، فن التقطيع الشعري والقافية (بغداد: منشورات مكتبة المثني، 1977)، ص230.

5 إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري (1037-1083هـ) شاعر ومحدث من المدينة المنورة. خلاصة الأثر، ج1، ص27.

6 الخياري، إبراهيم، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة إبراهيم الخياري، تحقيق رجاء محمود السامرائي، ص97.

تنوع موسيقي ينشط الذهن. إلا أن شاعرنا لم يوفق في هذه المزدوجة، بل إن بعض النقاد القدامى لم يعدوا المزدوجات في القصيد لأنها تدل - في رأيهم - على عجز في المقدرة الشعرية، والأمر يتبع مقدرة الشاعر.

ولعل شعراء الرباعيات والمخمسات كانوا أكثر توفيقاً في أنغامهم من أصحاب المزدوجات، فالشاعر صالح بن سلطان¹ جاء برباعية² طربة النغم عذبة الوقع على الأذن تجري على نحو قوله:

يا برقَ شِعْبِ الأبرقَيْنِ	إنْ جَزَتْ وادي الرقْمَتَيْنِ
سَلِّمْ على جَدِّ الحسينِ	وَأَلِّهِ والصالحينِ
أزكى الأَنَامِ مَحْتداً	ومن أَنانَا بالهدى
ونورُهُ لما بدا	أحجَل نورَ النَّيرَيْنِ ³

فروي المطلع النون أضفى على الأبيات عذوبة وجرساً حلواً، وخفف وطأة روي الأشطر التي جاءت في المقطوعة الثانية، فكأن حرف النون يعيد إلى النفس الطرب والمتعة في نهاية كل مقطوعة، كما اعتمدت المقطوعة الثانية على المدود، والمد أقدر على إحداث تأثيرات نفسية، وتنوع في الإيقاع بين الارتفاع والانخفاض، وهذا التلون يكسب النص نغمة واضحة في النطق والإنشاد.⁴

أما المخمسات⁵ النبوية فقد كثرت في هذا العصر كثرة ملحوظة. وقد نظم

1 صالح بن سلطان (1157-1222هـ) شاعر حافظ من حلب، إعلام النبلاء، ج7، ص169.

2 الرباعيات هي مقطوعات متوالية يتألف كل منها من أربعة أشطر، وتكون أشطر المقطوعة الأولى (المطلع) على روي واحد، ثم تتألف المقطوعات الأخرى في رويها فتكون أشطرها الثلاثة على روي والرابع على روي المطلع: فن التقطيع الشعري، ص291.

3 إعلام النبلاء، ج7، ص171-172.

4 حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ص155.

5 المخمسات كالرباعيات إلا أنها تتألف من خمسة أشطر، وقد يأتي الشطر الرابع والخامس من قصيدة أخرى ويسمى هذا التخمين: فن التقطيع، ص296.

مالك بن المرحل السبتي¹ مخمسات نبوية التزم فيها حروف المعجم بدءاً وانتهاءً، كما التزم الشطر الخامس كله في المدحة النبوية المخمسة، يقول فيها:

ألف: أحلُّ الأنبياءِ نبيءُ بضيائه شمسُ النهارِ تضيءُ
وبه يؤمِّلُ محسنٌ ومسيءُ فضلاً من الله العظيم عظيمًا
صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً

باء: بدا في أفقِ مكة كوكبا ثم اعتلى فجلا سناء الغيَّهبا
حتى أنارَ الدهرَ منه وأخصبا إذ كان فيضُ الخيرِ منه عميما
صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً²

فالشاعر ذكر اسم الحرف "الألف"، وقصد به الهمزة في المقطوعة الأولى، ثم ختم الأشطر الثلاثة الأولى بالهمزة. أما الرابع والخامس فقد جاء على روي الميم المفتوحة، كما التزم القسم الخامس في المقطوعات كلها، فأكسب بهذا التكرار النص جرساً موسيقياً عذباً، مما جعل القصيدة قابلة للإنشاد بهذه الدندنة اللطيفة.

وكان كثير من أدباء العصر يخمسون قصائد لغيرهم، ويجعلون أبيات الآخر تأتي في الأشطر الرابعة والخامسة، كما فعل الشاعر أمين الجندي³ حين خمس نبوية عبد الله حجازي التي مطلعها:

أهلاً بنشرٍ في مَهَبٍ زَرُودٍ أحيا فؤادَ العاشقِ المنجود⁴

¹ مالك بن المرحل السبتي من شعراء سبته في المغرب، له مخمسات نبوية التزم بها حروف المعجم بدءاً وانتهاءً: نفتح الطيب، ج10، ص309.

² المرجع نفسه ج10، ص309.

³ أمين بن محمد بن خالد الجندي الحمصي (1180-1257هـ) شاعر من أعيان حمص، له قدود وموشحات غنائية وأنغام مستحدثة: الأعلام، ج2، ص16.

⁴ المحيي، محمد أمين بن فضل الله، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق محمد عبد الفتاح محمد الحلوة، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (1967-1969)، ج2، ص568.

فجعلها في خمسة نبوية له، ومما جاء فيها:

ما خابَ راجٍ راحٍ يقصدُ بابَه دوماً ويرجو بالنوال جنابَه
حرماً تؤم المرسلون رحابَه وتطوف أملاكُ السماء قبابَه
فتراهمُ من نزلٍ وصُعود

هل غيرُ طَه في الشدائدِ منقذي وحِماه لم يبرحُ حمى المتعوِّد
روحي الفداء لقبره الزاكي الشذي إني وفيه ذلك النورُ الذي
بضياته يهدي إلى المعبود¹

وكثر في هذا العصر تخميس بردة البوصيري وهمزيتة التي مطلعها:
كيف ترقى رُقَيْكَ الأنبياءُ يا سماء ما طاولتها سماء
وقد خمسها أمين الجندي أيضاً كاملة، واستهل أولى مقطوعاته بقوله:
يا نبياً سَمَتْ بك العلياءُ وأضاءتْ بنوركِ الظلماء
حيث ما لا بتدا عَلاك انتهاء (كيف ترقى رُقَيْكَ الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء)

ومنها قوله:

لك بالوجدِ يابسُ الجذعِ حنّاً وعليك الإله بالقرب مَنّا
والنبيون إذ تعاليتَ معني إنمّا مثّلوا صفاتك لنا
س، كما مثل النجومَ الماءُ²

وكذلك خمست قصيدة البرعي النبوية ومن خمسها الشاعر محمد الأريحاوي.³

ومما جاء فيها:

¹ ديوان الشيخ أمين الجندي، ص199.
² نفسه ص143، وينظر لمثلها أيضاً في إعلام النبلاء، ج7، ص238، وحلية البشر، ج3، ص1289، وخلاصة الأثر، ج4، ص471.
³ محمد الأريحاوي ولد 1208هـ، شاعر من إدلب وعالم ومفت، حلية البشر، ج3، ص1288.

أتاهم منذراً فأبوا وهموا بإخراج له وطغوا فذموا
وللايمان أصلاً لم يؤموا دعاهم واعظاً فعموا وصموا
فأعقب وعظهم ضرباً وطعناً
نبيُّ قد سعى للحق سعيًّا حميداً مخلصاً أمراً ونهياً
أبان الشرع إثباتاً ونفيًّا وإن الله كلم ذلك وحيًّا
وكلم ذا مشافهةً وأذناً¹

فالشاعر أخذ الشطر الرابع والخامس من نونية البرعي وقد التزم الشطر الخامس فحسب إذ كان على روي المطلع النون. أما الأشطر الأربعة الأخرى فالتزمت في كل مقطوعة حرف روي واحد، وهو يختلف من مقطوعة لأخرى. وهذه التخميسات كلها أضفت على الأبيات موسيقى عذبة طرية، كما حافظت على كثير من القوائد التي عرفت كاملة عن طريق تخميسها كنبوية الحجازي السالفة الذكر.

وهناك مسدسات ومسبعات ومثمنات نبوية ومن الثانية قول مصطفى الكردي² في تسبيح بردة البوصيري:

داعي الغرام جميلٌ والهوى قِسْمٌ والجسْمُ من سقم أجفانٍ به سَقْمٌ
وإن ركنَ اصطباري عنه منهدمٌ لكن رقي ينادي: ذا الفتى عدم
يروم شراً في أحشائه أَلْسَم (أيجسب الصبُّ أن الحبُّ مُنكِم)
(ما بين مُنْسَجِمٍ منه ومُضْطَرِم)³

فالشاعر جاء بالمسبعة على روي الميم، وكان الشطر السادس والسابع مضمناً من بردة البوصيري.

¹ المرجع نفسه ج3، ص1293.

² مصطفى الكردي (ت1225) شاعر حلبي ينظر له في مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، المنتخب من المخطوطات العربية في حلب (بيروت: عالم الكتب، 1987)، ص402.

³ المرجع نفسه، ص402-403، وينظر لمعشرات نبوية في سلك الدرر، ج1، ص58.

ومن المعشرات النبوية — وقد جاءت على عشرة آيات لا عشرة أشطر، وبدأ كل بيت منها

وانتهى بحرف واحد — قول أبي السعود المتبني في نبوية له بناها على حرف الجيم:

جاء بالحقّ من أنارَ الدياجي	فهدانا بنوره الوهّاج
جلّ من بالجمال فيه تجلّى	واجتباه لقربه والتناجي
جرّد العزمَ فهو خسير نبيّ	من أولي العزمِ واضح المنهاج
جدّد الدينَ بعدما فرّقته	عصبةٌ بين زائغٍ ومُداج
جوده عمرَ الوجود وجدّوا	هُ بحارٌ، والخلقُ كالأمواج
جحدّته عيونُ قومٍ فأطفا	إذ رمى الله نورها بالعجاج
جمع الأمر بين حقيّ وخلق	وانطوى الكلُّ فيه بالاندرج
جبرائيلُ الأمين منه يناجي	به بطورِ الفؤاد وهو المناجي
جال في لجة الغيوب وأسرى	ورأى اللهَ ليلةَ المعراج
جدُّ بعفوٍ يا خيرَ من بذل الجوا	د لعبدٍ ما زال للفضل راج ¹

إن تكرار حرف الجيم في المطالع والأعجاز، وإن بدا فيه بعض التكلف، أعطى

جرساً موسيقياً ونغمة محببة إلى حد ما.

وهناك موشحات نبوية لا تكاد تخرج في مضمونها عن أخواتها من القصائد النبوية، أما منهجها فيختلف، إذ يقوم على قفل عدد أشطره بين 2-4 أشطر، ويلتزم فيه روي الشطرين الثاني والرابع، وبيت يتكون من 3 إلى 6 أشطر يلتزم فيها روي الأعجاز فيما بينها لكن الروي يختلف في كل بيت، ويكون القفل مع البيت ما يسمى بالدور، وتختتم الموشحة بالخرجة، وهي في المدائح النبوية فصيحة لا إسفاف فيها،

¹ سلك الدرر، ج 1، ص 62، وقوله: "ما زال للفضل راج" ترك فيه نصب الروي للضرورة الشعرية.

وغالبًا ما تكون صلاةً وسلامًا على الرسول ﷺ.¹ وتقوم موسيقى الموشحة علي نظام يعتمد على التغيير والتوازن والتكرار، مما يكسب الموشح نغمة طربة تبهج النفس. ومن موشحات العصر العثماني ذات الجرس العذب واحدة لأمين الجندي المعري،² وكان قفل المطلع فيها قد التزم في شطره الأول والثاني حرف الروي الميم والثاني والرابع حرف السين، وذلك على النحو الآتي:

شادنُ تاهَ على بدرِ السما وتحلّى برداءِ سنّـسِ
وببيضِ اللحظِ والسمِرِ حمى خمـرَ ريقٍ في نُغـيرِ ألعـسِ
ومنها في الثناء على الرسول ﷺ:

عينُ أعيانِ البرايا والملا سيّدُ الرسلِ ومصباحُ الهدى
منَ أقام الدينَ حتى أن علا وسقى السمّ من السيفِ العدى
وأتى بالحقِّ مُدعنا جلا ظلّمة الشكِّ وأوثاقِ الردى
منَ عليه الضبُّ حقًا سلّما وله الظيُّ شكّا فِعْلُ المُسيِّ
كم وكم أبرأ عيناً من عمى فاجتنبْ أفعالَ أهلِ المهجسِ³

هذه الموشحة الأندلسية⁴ في أنموذجها أعطت الأبيات جرساً موسيقياً عذباً، وانسجاماً نشأ من توالي الحروف في نهاية كل شطر من أشطر القفل الذي يتألف من

¹ يرى ابن سناء الملك أن الخرجة يجب أن تكون عامية وغزلية، وفيها إسفاف وظرف لتدفع السأم. وأرى أن هذه الشروط لا تناسب المدحة النبوية، ولذلك لم يتبعها شعراء المديح النبوي، ورأوا أن أنسب ختام لها الصلاة عليه ﷺ. وينظر لشاهد على ختم النبوية بالصلاة على الرسول ﷺ: علماء دمشق ق12هـ، ج1، ص500.
² أمين بن محمد الجندي المعري شاعر ومفتي الشام: حلية البشر، ج1، ص353.
³ المرجع نفسه ج1، ص362.
⁴ نسبة إلى موشح ابن سهل الأندلسي الذي مطلعته:

هل درى ظي الحمى أن قد حمى قلب صب حلّه من مكس
وقد عارضه الوزير أبي عبد الله الخطيب شاعر الأندلس في موشح مطلعته:
جداك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

خلاصة الأثر، ج1، ص144، وسمي هذا الأنموذج بالموشح الأندلسي، وقد عارضه شعراء العصر العثماني كثيراً كما في الشاهد المذكور، ينظر لذلك أيضاً: إعلام النبلاء، ج6، ص465.

أربعة فسائم، وينتهي فيه الشطر الأول والثالث بحرف الميم المنغم، والثاني والرابع بحرف السين ذي الرنة الطرية، أما البيت فيتألف من ستة أشطر كان الأول والثالث والخامس على روي اللام الموصولة، والقسيم الثاني والرابع والسادس على حرف الدال الموصولة أيضاً.

وهذا موشح آخر للشاعر عبد الرحيم المخلاقي¹ يوحى بروي الحاء الذي انتهى به القفل إلى ما يعانیه المدّاح النبوي من تعب ووصب، لكن هذا التعب والوصب سرعان ما يزول مع مدح الرسول ﷺ، السيد المعتلي بمحة النفس والفؤاد، الذي تعطر فضائله صحائف الدهر، يقول:

شاطر الدهرَ أسهما	حيث أيامه اقتسراخ
وامتطى الليلَ أدهما	لاكتسابِ العلى المتاح
سيدٌ تخضعُ الشمسُ	لعلا شأوه الرفيعُ
إذ غدا بمحةَ النفوسِ	روضُ أفضاله المريع
بعد ماعطرَ الطروس	ذكره العاطرُ البديع ²

فالشاعر جاء بهذا الموشح من خمسة أدوار التزم في روي الأقفال حرفاً في الصدر وآخر في العجز، وكذلك فعل في الأبيات، وكان القفل مكوناً من أربعة أشطر، والبيت من ستة، ويبدو أن هذا النموذج هو المفضل في ذلك العصر، وفيه نغم متساق يجذب الأنظار، ويهيج القلوب، ويستجيش المشاعر.

وهكذا تعددت النماذج الموسيقية في المدائح النبوية، وجاء بعضها على أبحر طرية، أو على مجزوعات تسر النفس وتبهج القلب، فضلاً عن ورود كثير منها على

¹ عبد الرحيم المخلاقي (1101-1140هـ) شاعر وشاح وعالم بالفرائض والحساب: سلك الدرر، ج3، ص7.

² المرجع نفسه ج3، ص7.

شكل رباعيات أو محمسات أو موشحات أو ما شابه ذلك، وكأن صاحبها يترنم بفضائل المصطفى ﷺ وتهتز مشاعره وتسعد روحه بذكره.

التشكيل اللغوي في القصيدة النبوية

ورث العصر العثماني قصائد نبوية ملهمة، وأخرى بدا فيها التكلف واضحا حتى عدت من النظم، ذلك لأن اهتمام أصحابها انصب على القضايا البلاغية، في عصر مال شعراؤه إلى الصنعة، وقد قلدهم شعراء هذا العصر فجاؤوا بقصائد مطبوعة أطلقوا فيها أنفسهم على سجيتهما للتعبير عن مواجدهم وأشواقهم تجاه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، من غير ما تكلف أو تعمل، ولكن آخرين أعجبوا بما ورثوه من نظم البوصيري والحلي اللذين أكثرا من التصنع والتكلف، وأطلق على قصائدهم اسم "البيديات".

تمتاز البيديات التقليدية وما سار على نهجها بطولها إذ يقارب معظمها مئة وخمسين بيتاً على البحر البسيط، وروي الميم المكسورة، وكان معظمها ينهج نهج بردة البوصيري كما رأينا وقد ذكر بعضهم في أبياته اسم اللون البيدي على غرار ما فعل عمر العزازي في مثل قوله:

براعتي وبديع المدح من كلمي	مُستفتحاً بمدح الزاكي الشيم
ما شحَّ بل سحَّ وأبلهم وصحفهم	ما حرقوا من أريج السلم والسلم
وضل من ظل لفظ العدل يؤلمه	فالقلب من لذع عدل فاظ بالألم ¹

1 إعلام النبلاء، ج7، ص28، وكلمة فاظ تعني فاض على لغة المشاركة الذين يقبلون الضاد ظاء في بعض مناطق البلاد وفي شرقي الجزيرة العربية إلى الآن. وينظر لما ذكر فيه اسم اللون البيدي، أبو زيد علي، البيديات في الأدب العربي نشأها وتطورها، أثرها (دمشق: دار الكتب، 1983)، بديعة للشاعر أبي الوفاء العرضي وتسمى: الطراز البيدي في امتداح الشفيق، ص336.

ففي البيت الأول نراه يذكر براعة الاستفتاح، وفي الثاني جناس التصحيف بين شح وسح وفي الثالث القلب بين لذع وعذل. وهناك مَنْ تكلف الإتيان بالبديع وإن لم يذكر اسم اللون البديعي في أبياته على نحو قول عبد الغني النابلسي¹:

والبدرُ قد شُقَّ من بحرِ السماء له عصائهُ أُصْبِع لو كان عن أمم
محا الضلال بإثبات الهدى وحمى حمى شريعته بالسيف والقلم²

ففي البيت الأول تلميح³ إلى قصة موسى عليه السلام، وفي الثاني طباق بين محا وإثبات، وجناس ناقص بين حمى وحمى، ولكنه لم يسم هذه الأنواع، بل اكتفى بإدخالها في أبياته ليزين بها أسلوبه على شاكلة أدباء العصر في موقفهم من البديع. وليس في البديعيات جمال أسلوب لأنها تؤدَّى غالباً في قالب مصنوع لا مطبوع، ولا تصدر عن تجربة شعورية، لأن غاية ناظميها كانت إظهار المقدرة البلاغية. ثم جاء شراح البديعيات فرسخوا هذه القوالب وجعلوا المدائح النبوية لتعليم القضايا البلاغية بأسلوب جاف لا طراوة فيه ولا حلاوة. وكان من هؤلاء الشراح عبد الغني النابلسي، وأبو الوفاء العرضي، وقاسم الكرجي، وحسين الدادخي، وغيرهم من شعراء العصر العثماني. ومن الأساليب التي استخدمها أدباء هذا العصر في تشكيلهم اللغوي المعارضة الشعرية، ومنها يبين إعجاب الشعراء بقصائد السالفين والمعاصرين ومحاولة تقليدهم لهم، وعلى الرغم من أن بردة كعب بن زهير النبوية التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم إثرها لم يفد مكبول⁴

1 عبد الغني النابلسي (1050-1143هـ)، شاعر متصوف من دمشق، له مؤلفات كثيرة. سلك الدرر، ج3، ص30.
2 النابلسي، عبد الغني، ديوان نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار، شرح البديعية المزرية بالعقود الجوهريّة (دمشق: دار الكتب، 1984)، ص184، وينظر مثلها في البديعيات، ص141.
3 التلميح هو الإشارة إلى قصة أو نكتة مشهورة أو إلى مثل سائر، المرجع السابق، ص184.
4 ديوان كعب بن زهير (بيروت: دار صادر، د. ت)، ص48.

كانت تنحو منحى جاهلياً وأن صاحبها لم يمدح الرسول ﷺ إلا لينجو من الموت، وأن مديحه جاء في بضعة أبيات فحسب، ومثل هذا لا ينتظر منه صدق الثناء،¹ إلا أنها لقيت إعجاباً كثيراً، وحُظيت بمعارضات عدة، ومن عارضها موسى بن عمر السباعي في قصيدة نبوية مطلعها:

صدت سعادُ وما للحال تحويل وليس لي في سواها قطُّ مأمولُ

وفيها يقول:

طه الحبيبُ الذي نارَ الوجودُ به وجساءه من لدى مولاه تتريلُ

نبيُّ صدقِ بدين الحق قام وفي كفيه سيفٌ لقمع الشرك مسلول²

ومنهم من عارض قصائد مشهورة بعد أن جعل موضوعها في المديح النبوي كما فعل خليل البكري³ حين عارض حائية فتح الله بن النحاس في مديح محمد بن فروخ أمير الركب الشامي إلى الحج، ومطلع قصيدة ابن النحاس:

بات ساجي الطرفِ والشوقُ يلحُّ والدجى إن يمضِ جنحُ يأتِ جنح⁴

ومطلع البكري:

أي دمعٍ لا يسحُّ وشجٍ في الحبِّ يصحو

وفيها يقول في المدح النبوي:

ودّع المهجر فقالي أن أن يثنيه مدحُ

لرسول جاء بالأن وار ليلَ الشكِّ يححو

سيدُ الكونين من ذك سراه لي طيبٌ ونفح⁵

1 المدائح النبوية، ص 24.

2 حلية البشر، ج 3، ص 1567، وينظر لمثلها في إعلام النبلاء، ج 6، ص 259.

3 خليل البكري الصديقي (1098-1173هـ) شاعر ومفتي الشام: علماء دمشق ق 12 هـ، ج 3، ص 143.

4 ديوان فتح الله بن النحاس، ص 111.

5 علماء دمشق ق 12 هـ، ج 3، ص 143، وينظر لمعارضة الشاعر أحمد بن مشرف لها أيضاً في ديوانه، ص 19.

ومنهم من عارض همزية البوصيري وشطر بعض أبياتها كما فعل صلاح الدين

الكوراني¹ فقال:

كيف لا تنجلي بك الغبراءُ واستضاءت بنورك الخضرأُ

وفيها يقول:

وسبقتَ الكرام شأواً فقل لي (كيف ترقى رقيق الأنبياء)

أيرومون من علاك لحاقاً (يا سماء ما طاولتها سماء)²

ومنهم من شطر قصائد معروفة وجعلها ضمن قصيدته كوسيلة من وسائل التعبير

اللغوي كما فعل عبد الرزاق الجندي³ حين شطر بردة كعب بن زهير ومما جاء فيها:

(أمتت سعاد بأرض لا يبلغها) إلا أقبُّ رباع فيه تسهيل

وليس يدرك ركباً فيه قد ظعنت (إلا العتاقُ النجيات المراسيل)

(ولا يبلغها إلا عذافرةً) سريعة الجري في البيداء شمليل

عوجُ الرقاب كرىماتٌ مؤصلة لها على الأئین إرفالٌ وتبغيل)⁴

والتشظير من أساليب التعبير التي يلجأ إليها شعراء العصر لتكون في تشكيلهم

اللغوي ومن شطر أيضا الشاعر أحمد المنيبي⁵ إذ جاء بأبيات للشاعر أبي المواهب

البكري⁶ النبوية فقال:

¹ صلاح الدين بن محيي الدين الكوراني (ت1049هـ) شاعر حلبي من المكرين ينظر له في إعلام النبلاء، ج6، ص239.

² إعلام النبلاء، ج6، ص244.

³ عبد الرزاق بن محمد الجندي (ولد 1150) شاعر من حلب ينظر له في سلك الدرر، ج3، ص11.

⁴ سلك الدرر، ج3، ص15 وينظر لمثلها في إعلام النبلاء، ج6، ص516.

⁵ أحمد بن علي المنيبي (1089-1172هـ) نسبة إلى متين قرية شمالي دمشق، علماء دمشق، ق12هـ، ج3، ص61.

⁶ الشاعر أبو المواهب البكري (ت1048هـ) من أساتذة الأزهر في مصر وقد مدحه كثير من الشعراء، خلاصة الأثر، ج1، ص201.

ما أرسل الرحمنُ أو يرسل
إلا وطه المصطفى عبده
خاتمُ رسل الله مبعوثه
فلذُ به من كل ما تختشي
من كل خيرٍ للورى يحصلُ
سرُّ الوجود السيدُ الأكمل
نبيُّه مختاره المرسل
تأمن أذى خطبُ غداً يثقل¹

ومن أساليب التشكيل اللغوي للمدائح النبوية أيضاً المساجلات الشعرية بين اثنين أو أكثر بحيث يبدأ واحد فيتم آخر، فثالث وهكذا فالشاعر عبد الرزاق الجندي كان في مجلس مع الشيخ محمد سعيد السويدي البغدادي والشيخ عثمان البصري الحمصي فقال الجندي مساجلاً بمدحه للرسول ﷺ:

هو المصطفى بحرُ الصفا وبه صفا
فقال البصري:

أجلُ ذوي الجاهِ العريض سيادةً
فقال السويدي:

محا نسخُ التوراة بالسيف والقنا
فقال الجندي متابعاً:

تقيُّ نقي كامل ومكمل
فقال البصري:

أجل النبيين الذي بعضُ فضله
فقال السويدي:

ولو صارتِ السبعُ البحار مدادَه
وميدانها طرساً لأعيتُ بعده²

¹ المرجع نفسه، ج 3، ص 67.

² سلك الدرر، ج 3، ص 19-20.

ومن الأساليب التعبيرية أيضاً اقتباس كلمات الحديث الشريف، وكتابتها ضمن النبوية على طريقة مبتكرة من ذلك قول عبد الله اليوسفي¹ وقد ذكر في أبياته قول الرسول ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، وكان الشطر الأول يحوي "قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام"، ويحوي الشطر الثاني نص الحديث الشريف المذكور، وذلك على النحو الآتي:

داعي الهنا (قال) لنسا تبياناً	أمرأً ونهياً (اتقوا) إعلاناً
حيث (رسولُ) الحق قد بشرنا	فيمن حُي (فراصةً) عياناً
حظي بنورِ (الله) في أحكامه	بقلبه (المؤمن) من حيث كانا
فتتجلي (عليه) أسرارُ غدت	ناطقةً (فإنه) أحياناً
محمد (أفضل) عادل يرى	بالضعفاء (ينظرُ) استحساناً
فإنهم غب (الصلاة) يسألوا	ن من (بنورِ) الحق قد هداونا
يقي دوماً (والسلام) لم يزل	له من (الله) لما أولانا ²

ومن هذه الأساليب أيضاً تضمين أبيات لشعراء آخرين، فالشاعر السيد شعيب الكيالي³ ضمن بيتي حسان بن ثابت رضي الله عنه وأشار إليهما في مدحته النبوية التي قال فيها:

أيا سكانَ طيبةَ إن فيكم	يطيب لي التمذُّحُ والثناء
على قلبي تجلَى من حماكم	حبيبٌ قد تغشاهُ البهاء
جميل لا يشأهه جمال	منيرٌ لا يقارُبُه سناء
(فأحسن منك لم تر قط عينُ	وأجمل منك لم تلد النساء)

¹ عبد الله اليوسفي شاعر من دمشق: علماء دمشق ق12هـ، ج3، ص455.

² المرجع نفسه ج3، ص455.

³ السيد شعيب بن إسماعيل الكيالي (1116-1172هـ) شاعر متصوف من حلب: إعلام النبلاء، ج6، ص511.

(ولدت مسيراً من كل عيب كأنك قد ولدت كما تشاء)¹
وهكذا رأينا تعدد أساليب التعبير عند مداح الرسول - صلى الله عليه وسلم -،
وكان نبع الشعراء السالفين والمعاصرين هو المعين الذي ارتووا منه فقلدوه شكلاً
ومضموناً وموسيقى، ثم أضافوا إليه من ابتكاراتهم ما جعل أدهم يستحق أن يدرس لما
فيه من تجديد وإبداع.

خاتمة

بعد هذه الجولة مع المدائح النبوية في العصر العثماني أرى أنها سارت على خطا
أخواتها في العصر المملوكي، وقد دعا إلى كثرتها أسباب عديدة لعل أهمها حب
الرسول ﷺ والمناسبات الدينية والكوارث والحروب السياسية. وقد تميزت المدائح
النبوية في هذا العصر بمظاهر متعددة وسمات مختلفة.

فمن حيث المضمون احتوت المدحة النبوية ذكراً لخلال الرسول ﷺ المادية
والمعنوية، وحدثاً عن معجزاته، وتعبيراً عن حبه ﷺ وجهاد صحابته معه لتوطيد
دعائم الإسلام، وكان بعضها يسترسل في الحديث عن الصحابة الكرام. وقد حوت
بعض المطولات حديثاً عن أمهات المؤمنين، وعن الخلفاء الراشدين والخلفاء من بني
أمية والعباس، كما وجد تجديد في مدائح للأنبياء الآخرين في قصائد مستقلة كزكريا
وإبراهيم ويونس عليهم السلام.

وكان في بعض المدائح تطرف ومغلاة مقبوحة شرعاً، وقد نجمت عن الفكر
الصوفي الذي يعلي من شأن الرسول ﷺ فيجعله يتصرف في العباد كما يشاء في
الدنيا، فضلاً عن الشفاعة في الآخرة. كما يعتقد أصحابه أن الرسول ﷺ مبدأ الكون
وختم الرسل إذ أوجده المولى تعالى قبل أن يخلق آدم، وأن الجنة تزخرت من أجله

¹ المرجع نفسه، ج6، ص513.

ولولاه ما كانت المعجزات، وما حمدت نار الخليل ولا كلم الله موسى، بل إن الدنيا كلها لم تخرج من العدم إلا من أجله وأنه رأى ربه يوم الإسراء والمعراج بدون حجاب...

أما سمات المدائح النبوية الفنية فقد تبدت في منهج المدحة وهي في معظمها بنية تقليدية إذا استهلّت بالغزل الرمزي غالباً أو بمناجاة المولى تعالى أو بالحديث عن التوبة أو بوصف الطبيعة، وانتقل بعضهم إلى الرحلة إلى ديار المصطفى ﷺ، ثم كان مضمون المدحة... فالخاتمة التي كانت صلاةً على الرسول ﷺ وعلى آله غالباً.

وقد طالت بعض المدائح حتى قاربت ثلاثمئة بيت، وقصُر بعضها حتى صار مقطعات أو شبيهاً بها، ويجمع بين أوصالها وحدة عضوية تقوم على العامل النفسي الذي يضم موضوعات المدحة النبوية في بناء متكامل، ولا يؤثر ذلك في وحدة البيت أو استقلاليتها.

أما موسيقى المدحة النبوية فكانت تقليدية غالباً، إلا أن كثيراً من الشعراء نظموا مدائحهم النبوية على نغمات الموسيقى المستحدثة في العصور السابقة كالزردوجات والرباعيات والخمسات والمسدسات حتى العشرات النبوية، فضلاً عن الموشحات النبوية، وقد كثر تخميس بردة البوصيري وهمزته.

إن المدحة النبوية ذات أسلوب مطبوع ملهم، إلا أن البديعيات كثر في تشكيلها اللغوي الصنعة والتعمّل، حتى إنها حوت في كل بيت لوناً بديعاً، وغالياً بعضهم في ذلك حتى سمى اللون البديعي الذي استخدمه. كما استخدم شعراء هذا العصر أساليب تعبيرية أخرى كمعارضة القصائد النبوية وغير النبوية للدلالة على تأثر الشعراء بالسابقين والمعاصرين لهم، ولجأ بعضهم إلى التشطير وكثر تشطير بردة كعب بن زهير ومعارضتها. وهناك من لجأ إلى المساجلات الشعرية أو إلى اقتباس ألفاظ الحديث الشريف وإدخالها في أبياته النبوية في تشكيل جديد.

وعلى أي حال، تعد مدائح العصر العثماني من أعظم تراثنا الشعري، وقد أغنت أدبنا العربي عامة والعثماني خاصة، وتأثر بها بعض الشعراء المعاصرين فنظموا مطولات نبوية على نحو ملحمة الإسلام للشاعر المصري أحمد محرم، بل إن الأعاجم الذين عرفوا اللغة العربية حاولوا النظم على منوالها كالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني إذ نظم نبوية سماها قصيدة الحجرة النبوية الشريفة¹ مقلداً بذلك مداح الرسول ﷺ.

¹ العصر العثماني، ص38.